(٥٧) أبو بكر الشِّبلي(١)

ذكر أبي بكر الشبلي بن جحدر رحمه الله رحمة واسعة:

كان رحمه الله من أجلِّ المشايخ وكبارِهم، وسيدَ القوم، وإمامَ أهل التصوف، نسيجَ وحده حالاً وظرافة وعلمًا، ورموزه وإشاراتُه أكثرُ من أن تُحصى، ورياضاتُه وكرامته أوفرُ من أن تُستقصى.

أدرك أكثر المشايخ، وكان في علوم الطريقة وحيدًا، وسمعَ الحديث، وكان مالكيَّ المذهب، بغداديَّ المولد والمنشأ.

صحب الجُنيد، وعاش سبعًا وثمانين سنة، ومات سنة أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة، وقبرُهُ ببغداد.

وكان رحمه الله حجَّةً على الخلق من الله، ولا يُمكن أن توصفَ أعمالُه وأحوالُه، وما عرضَهُ فتورٌ إلى آخر عمره، ولا سكنَ التهابُ شوقه ووجده بحال.

وقال: قرأت الحديث والفقه(٢) ثلاثين سنة حتى طلعتْ شمسُ الهداية من

---

(١) هو دلف بن جَحْدر، وقيل: ابن جعفر، ويقال: إن اسمه جعفر بن يونس، وترجمته في:
طبقات الصوفية ٣٣٧، حلية الأولياء ١٠/٣٦٦، تاريخ بغداد ١٤/٣٨٩، الرسالة القشيرية ٩٧، الأنساب ٧/٢٨٢، مناقب الأبرار ٦٣٥، صفة الصفوة ٢/٤٥٦، المنتظم ٦/٣٤٧، اللباب ٢/١٠، الكامل في التاريخ ٨/٣٥٠، المختار من مناقب الأخيار ٢/٢٩٢، وفيات الأعيان ٢/٢٧٣، مختصر تاريخ دمشق ٢٨/١٦٧، سير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٧، العبر ٢/٢٤٠، مرآة الجنان ٢/٣١٧، الوافي بالوفيات ١٤/٢٥، البداية والنهاية ١١/٢١٥، الديباج المذهب ١١٦، طبقات الأولياء ٢٠٤، النجوم الزاهرة ٣/٢٨٩، نفحات الأنس ٢٦٦، طبقات الشعراني ١/١٠٣، الكواكب الدرية ٢/٨٣، شذرات الذهب ٢/٣٣٨.
والشبلي نسبة إلى قرية من قرى أسروشنة يقال لها: الشِّبلية. الأنساب.

(٢) قوله: (والفقه) ليست في (ب).

صدري، ثم واظبتُ المشايخ، وكنت أسألُهم عن الله تعالى، وأقول: هاتوا فقه الله تعالى[١]، فما أجابني أحدٌ، إذ لا اطّلاعَ لأحدٍ على الغيب[٢].

نقل أنّه احتملَ من جهّالِ زمانه أذّى كثيرًا، وكان دائمًا في ردِّ الخلق وقبولِهم وازدحامهم عليه، وكانوا يقصدون هلاكه، حتى انكشفَ أمرُهُ، وعُرفت حالاته، واعتقدَهُ العلماءُ والمشايخ، واشتهر بين المسلمين بالولاية.

وكان ابتداءُ أمره أنّه كان واليًا في نهاوند، أميرًا عليهم، فأرسلَ الخليفةُ من بغداد إلى حاكم الرَّيِّ خطًّا يطلبه إليه، فرحل حاكم الرَّيِّ إلى بغداد، ومعه الشبليُّ وغيرُهُ من الأمراء، فوصلوا إلى الخليفة، وأكرمهم الخليفةُ، وأنعمَ عليهم بخِلَعٍ وتشريفاتٍ، ورجعوا إلى مواضعهم، فعطسَ حاكمُ الرَّيِّ في الطريق، ومسح بطرفِ كمِّ خلعة الخليفة أنفَه وفمه، ونظفهما به، ووصل[٣] هذا الخبر إلى الخليفة، فغضبَ عليه، فأرسل إليه، وأمرَ بخلعِ الخِلعة عنه، واللكم على قفاه ورقبته، وعزله لأنّه أساءَ الأدب مع الخليفة، ولهذا استحقَّ الإهانةَ والتحقير، فاطّلعَ الشّبليُّ على هذا الأمر، وانتبه، ورجع من ساعته إلى الخليفة، واستقال، وقال: أيّها الخليفة، إذا لم يجز استخفافٌ مع خلعتك وأنت مَخلوقٌ من المخلوقين، ولا يخفى مقدارُ خلعتك عند من استخفَّ بخلعة الله تعالى، كيف يكون حالُه في إساءة أدبه مع الله؟ واللهُ تعالى شرّفني بخلعة معرفته، هل يرضى بأن أجعلها منديلاً[٤] لخدمة المخلوقين؟ فترك الحكمَ والإمارة، ودخل مجلسَ خيرِ النسّاج ليتوبَ، وأحاله النسّاجُ رحمه الله على الجُنيد.

فذهب الشبليُّ إلى الجُنيد، وقال: يقولون إنَّ جوهرَ المعرفة عندك، فأرشدني إليه، إمّا ببيعٍ أو هبةٍ. فقال الجنيد: أمّا بالبيعِ فليس لك ثمنُهُ، وأمّا

(١) في (ب): ما يوافقه الله.
(٢) في (ب): لا اطلاع على أحدٍ للغيب.
(٣) في (أ): إلى مواضعهم، فعطس به، ووصل الخبر.
(٤) في (ب): أجعلها منه منديلاً.

بالهبة فلا يبقى له قدرٌ عندك واعتبار، فاجعل قدمَكَ من الرأس، وارمِ نفسك في بحر المجاهدة والصبر والانتظار، لعلّكَ تصلُ إلى جوهر المعرفة.

قال الشبلي: فالآن، أيُّ شيءٍ أعمل؟ فأمره الجنيد ببيع الكبريت سنةً، ففعل ذلك، ورجع إلى الجُنيد، فقال: لعلَّكَ يحصلُ لك في هذه التجارة شهرةٌ[١]، فأشار عليه بأن يدورَ على الأبواب سنةً، ويكدي ولا يعمل غيره، ففعل، وما أعطاه أحدٌ في جميع بغداد شيئًا، فرجعَ إلى الجنيد، وعرَّفَهُ الحال، فقال الجُنيد: عرفتَ الآن أنَّ لا قيمةَ لك ولا مقدار عند الناس، فلا تُعلّقْ بهم قلبَكَ، ولا يكن لهم أيضًا عندك قيمةٌ ومقدار، وتوكّلْ على الحيِّ الذي لا يموت، ولكن كنتَ مدَّةً حاكمًا على طائفةٍ، فارجعْ إليهم، واستحلَّ منهم، عسى أنهم يُبرئون ذمَّتَكَ، ويجعلونك في حلٍّ. فأتى إليهم، وقال: كنتُ واليًا في بلدكم، وحكمتُ عليكم، فأرجو منكم أن تَجعلوني لأجلِ الله تعالى في حلٍّ[٢]. ودارَ على الناس واحدًا واحدًا، وبيتًا بيتًا، قال: فبقي لشخصٍ عليَّ مظلمةٌ، وما وجدتُهُ، وبذلت لذلك مئةَ ألف درهم للفقراء والمساكين، وقلبي غيرُ مُطمئنٍّ بعدُ.

قال: مضى على هذا أربعون سنة[٣]، ثم رجعَ إلى الجنيد، فقال الجُنيد: فيك بعدُ من محبَّةِ الجاه. فأمرني نوبةً أُخرى بالدَّوران على الأبواب، والتكدّي، فكنت أدورُ أطلبُ وأَجمعُ كُسيراتِ الخبز، وأذهب بها إلى الشيخ، وهو يُطعمُها للفقراء، ويَتركني جائعًا، فمضى على ذلك سنةٌ، ثم قال: ادخلْ بين الأصحاب، ولكن على أن تكونَ خادمًا لهم. فمضتْ سنةٌ أخرى، وقال لي: يا شبل، كيف تجدُ حال نفسك؟ قلت: أراها أنّها أقلُّ خلقِ الله. قال الجُنيد رحمه الله: فالآن صحَّ إيمانُك.

---

(١) في (ب): التجارة شهوة.
(٢) في (أ): فأرجو منكم أن تجعلوني في حلٍّ خاصةً لله.
(٣) كذا في الأصلين، ولعلّ الصواب: على هذا سنةٌ.

فوصلَ إلى أنه كان[١] يَملأ كفَّه من السكّر، ويدورُ على الصبيان، ويقول لهم: من يقول (الله)، املأُ فمَه من السكّر، فكان يفعلُ كذلك، ثم بعد ذلك يملأُ جيبه من الدنانير والدراهم، ويقول: من يقول (الله)[٢] أملأ فاه منها، ثم بعد ذلك حصلتْ له غيرةٌ، وكان يأخذُ سيفًا ويقول: من يقول (الله) أَضربُ رقبته، فقالوا له: كنتَ قبل اليوم تملأُ أفواههم بالسكّر، ثم بالدِّينار والدرهم على أن يقولوا (الله)، والآن تقول: من يقولُ (الله) أضربُ رقبته! قال: لأنّي ظننتُ أنّهم يقولون (الله) ويذكرونَهُ على التحقيق، ثم ظهرَ لي أنّهم يذكرونه على الغفلةِ ومجاري العادات، وأنا لا أستحسنُ أن يَجريَ هذا اللفظ إلاّ على لسانِ عارفٍ به.

وكان يدور، ويكتبُ لفظة (الله) على كلِّ ما يجده، حتى سمعَ هاتفًا يقول: يا شبلي، إلى متى تطلب الاسم؟! فادخلِ الآن في باديةِ طلب المُسمّى. فوقع هذا الكلام على قلب الشبلي، وازدادَ قلقُهُ وشوقه، وغلبَ وجدُه وعشقه[٣]، حتى أنّه رمى نفسه في الدجلة، فماجَ موجٌ، وقذفه على الساحل، ثم ألقى نفسَه في النار، فما أثَّرتِ النارُ أيضًا فيه، ثم ذهب إلى موضعِ السباع، وألقى نفسَه بينهم، فتنفَّروا عنه وهربوا، ثم صعد شاهقًا، ورمى نفسَه من الشاهقِ، فجاءَتْ ريحٌ وأخذته، ووضعته على الأرض بلا مضرَّةٍ، فازداد شوقُه بأضعافِ ما كان، فصاحَ وقال: ويلٌ لمن لا يقبلُهُ الماءُ، ولا النار، ولا السباعُ، ولا الجبال. فسمع هاتفًا يقول: من كانَ مقبولَ الحقِّ لا يقبلُهُ غيرُه.

ثم بعد ذلك نَسبوه إلى الجنون، وقيَّدوه بالسلاسل، وحبسوه في المارستان، ويتردَّدُ إليه الناسُ جماعةً جماعةً، ويقولون: هذا مجنون. وهو يقول: أنا مجنونٌ، وأنتم العقلاء! فأرجو من الله تعالى أن يزيدَ جنوني وعقلَكم. ثم بعثَ الخليفة طبيبًا ليعالجَه، فكان يُركِّبُ[٤] الدواء، ويوجرون في

---

(١) في (أ): فوصل إلى الداوي أنه.

(٢) في (أ): من يقول مرة (الله).

(٣) في (أ): وازداد قلقه وشوقه وجدُه وعشقه.

(٤) في (أ): فكان يركبون الدواء.

حلقة، وهو يقول: لا تتصدَّعوا؛ فإنَّ لي داءً لا يطيبُ بمعالجتكم.

نقل أن جماعةً من الناس دخلوا عليه، وهو في الحبس، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن أصدقاؤك وأحباؤك. فأخذ الحجارةَ ويرميهم بها، فكلُّهم هربوا عنه، فقال: يا جماعةَ الكذّابين، لو كنتم أصدقائي وأحبائي لما فررتم من بلائي، فعُلم[١] أنّكم تحبُّون أنفسَكم ولا تحبوني.

ونقل أنه كان يذهب وفي كفِّه نارٌ، قالوا: إلى أين؟ قال: أمشي لأحرقَ الكعبة؛ حتى يتركها الناسُ، ويشتغلون بربِّها.

ورأوه يومًا، وبيده عودٌ، كِلاَ رأسَيْهِ مشعولٌ، قيل له: ما هذا يا أبا بكر؟ قال: أريد أن أحرقَ بأحد الطرفين الجنة، وبالآخر النار، ليتوجَّهَ الخلقُ في العبادة إلى الله تعالى.

أقول: يُشير بالكلام الأوّلِ إلى أن الناس يطوفون حولَ الكعبة، ويحجُّون من مكانٍ سحيق ـ أي بعيد ـ ولا يعرفون كيفية هذه العبادة[٢]، فكيف يعرفون المعبود، فيشتغلون بالعبادة كيف كانت على غفلةٍ من المقصود الأصلي وهو المعرفة؟.

وبالكلام الثاني إلى أنَّ العَارفَ المحقِّقَ ينبغي أن يعبد الله تعالى بلا غرضٍ ـ أي لا لأجل رغبةٍ في الثواب، ولا رهبةٍ في العقاب ـ بل لو فرضنا أنَّ الله تعالى لم يكلّفْ أحدًا بشيءٍ من العبادة، فالعارف يجتهدُ في العبادة في هذه الحالة أيضًا أقوى ما يكون؛ لأنَّ الله تعالى أهلٌ للعبادة، مُستحقٌّ لها، سواءٌ كان أَمَرَ أم لا، وأمّا الجاهلُ المقلِّدُ فإنّما يعبدُ الله تعالى على طمعٍ في نعيم الجنة، أو خوفٍ من أليم العقاب، ولأجلِ أمثالِ هذه الكلمات كانوا ينسبون الشبليَّ إلى الجنون. والله أعلم.

نقل أن الشبليَّ رحمه الله كان يرقصُ تحت شجرةٍ أيامًا، فسألوه عن هذه

(١) في (أ): فعلمتُ أنكم.

(٢) في (أ): كيفية هذه المعادة.

الحالة، فقال: على هذه الشجرة فاختةٌ[١] تصيح وتقول: كو كو، وأنا أيضًا لموافقته أقول: هو هو، فنقل أنَّ الفاختة ما سكتَتْ إلاّ بعدما سكت الشبليُّ.

نقل أنَّ رِجلَه كُسرت نوبةً، وجرى الدَّمُ منها، فكان يتقاطرُ على الأرض، ويظهر نقش لفظة (الله).

ونقل أنَّ الشبليَّ كان في أوّلِ المُجاهدة بحيث أنَّه يكَتحلُ بالملح كم سنة ليعتادَ السهر، ولا يأخذه النوم.

وقال بعضُهم: اكتحلَ بسبع منّاتٍ[٢] من الملح، وكان يقول: إنَّ الله تعالى ألهمني وألَحَّ عليَّ أن النائمَ غافلٌ[٣]، والغافلَ محجوبٌ.

ونقل أنه رحمه الله كان يأخذُ حزمةً من القضبان، ويدخلُ سردابًا، ويشتغلُ بالعبادة والمراقبة، وإذا حصلتْ له غفلةٌ يأخذُ قضيبًا، ويضربُ به على يديه ورجليه، حتى إذا انكسرتِ القضبان كلُّها يقومُ ويضربُ يديه ورجليه على الحائط.

ونقل أنه قال: تمنّيتُ في جميع عمري أن تكون لي مع الله خلوةٌ بحيث لا أكون أنا في البين.

وقال: اجتهدتُ سبعين سنةً لأن أعلم نَفَسَ الرحمن.

أقول: يُشير إلى أن ما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «إنّي لأجدُ نَفَسَ الرحمن من جانب اليمن»[٤]. والله أعلم.

---

(١) الفاختة: واحدة الفواخت، لضرب من الحمام المطوّق، وتسمّى بالشام: يا كريم، وفي العراق فُخْتيّة. معجم متن اللغة.

(٢) المنُّ: كيل يكال به السمن، أو ميزان يوزن به، وقد اختلف في تقدير وزنه وأنواعه، فقيل: المن الطبي يساوي ٦١٨ غرامًا، والمن المصري ٤١٢ غرامًا، والمن التبريزي يساوي ٢٥٢٥,٨ غرامًا، والمن الشاهي ٥٠٥١,٦ غرامًا. معجم متن اللغة.

(٣) في (أ): ألهمني وألحَّ أن لا أنام غافلاً.

(٤) حديث ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ٢٢٢. قال الحافظ العراقي: أشار ﷺ بقوله هذا إلى أويس القرني، لم أجد له أصلاً. وقد روى البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٧٠ والطبراني في=

وقال: ليتَ أنّي أكونُ أَتونيًا(١)، لا يعَرفني أحدٌ.

وقال رحمه الله: إنّي أنظرُ إلى نفسي كما أَنظرُ إلى يهوديٍّ.

وقال: إنّي ابتليتُ بأربعة أشياء، كلُّها أعداءٌ ليَّ: الدنيا، والشيطان، والنفس، والهوى.

إنّي ابتليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا إلاّ لعظمِ مُصِيبتي وشقائي
إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهَوى كيفَ الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

نقل أنه كان يقول في مناجاته: إلهي، لو جعلتَ الدُّنيا في حكمي، لجعلتُها لقمةً، وأَلقيتها كلبًا أو يهوديًا؛ لأنّها صارَتْ حجابًا عن المقصود.

قال: قلتُ: العارفُ خيرٌ من الدنيا والآخرة، لأنَّ الدنيا دارُ المحنة، والآخرةَ دارُ النِّعمة، وقلب العارف دار المعرفة.

وقال: إذا طلبَ مَلَكُ الموت روحي، لا أُسلّمُ إليه روحي، وأقول: إلهي، كما سلّمتَ إليَّ روحي بلا واسطةِ أحدٍ، فكذلك تَسَلَّم منّي بلا واسطة أحد.

وقال: إني لو لم أخدمِ السُّلطان لما كنتُ قادرًا على خدمة المشايخ، ولو لم أخدمِ المشايخ لم أكن قادرًا على خدمة الله تعالى.

ونقل أنه نوبةً في غلبات الشوق خلعَ قميصه، وألقاه في النار ليحترق، قالوا: هذا خلاف العلم، لأنَّه لا يَجوزُ في العلم تضييعُ المال. قال: نعم، ولكن فعلتُ هذا بفتوى القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فإنّي نظرتُ إلى هذا القميص فأعجبني، فظهرَتْ فيَّ غيرةٌ، فأحرقتُهُ لئلا أشتغلَ بشيءٍ غير الله تعالى.

نقل أنه طابَ يومًا وقتُهُ، فدخل في السوق، واشترى مرقّعةً بدانق، وقلنسوةً بنصف دانق، ولبسهما، ثم ينادي: من يشتري صوفيًّا بدانقين؟.

= المعجم الكبير ٧/ ٥٢ عن سلمة بن نفيل قال: قال رسول الله ﷺ، وهو مولٍ ظهره إلى اليمن: «إني لأجد نفس الرحمن من هاهنا» وانظر إلى بداية ترجمة أويس القرني صفحة (٤١).

(١) الأَتون والأَتُّون: الموقد الكبير، كموقد الحمّام.

نقل أنه كان يحدّثُ للناس نوبةً، وكثيرًا يجري على لسانه: (الله)، (الله). قال فتىً مُحترقُ الفؤاد: يا شيخ، لِمَ لا تقولُ لا إله إلاّ الله؟ فتأوّه الشِّبليُّ، وقال: أخافُ ثمَّ أن أتكلّمَ، وأقولَ: (لا إله) وينقطع نَفَسي قبلَ أن أقول: (إلاّ الله) ثم أبقى في هذه الوحشة أبدَ الآباد. فأثّر الكلامُ في قلب الفتى، وأَنَّ أنينًا، وماتَ في ساعته، ثم جاء أولياء الميت، وادّعوا على الشبليِّ بالدم، وذهبوا به إلى دار الخلافة، فقال الخليفة: ما تقولُ يا شبلي؟ قال الشبلي: يا أمير المؤمنين، كان للفتى روحٌ قد احترقتْ بنار العشق في انتظارِ لقاءِ جلال الله تعالى، وانقطعَتْ عن جميع العلائق، وفنيت عن صفات النفس[1]، ولم تبق له طاقةٌ ولا صبر، وقد تواتر المتقاضي من الحضرة في باطنه، فلمعَ برقٌ من جمال حضرة القدس، فترقّى من مقام الوجدِ إلى مقام الشهود، فالروحُ المحترقة كالطير المقفّص، كسرتِ القفص الذي هو القالبُ، وطارت إلى المنزل الأصلي، وعادت إلى المقام الأول، فما ذنب الشبليِّ؟ فقال الخليفة: ردُّوا الشِّبليَّ إلى منزله، فإنه ظهر فيَّ من كلماته حالةٌ كدتُ أن أُلقي نفسي من هذا السرير.

نقل أنَّ من كان يجيءُ إليه للتوبة، يقول له: سافر إلى الكعبة على التجريد، ثم بعدما ترجع تصاحبنا. ثم كان يبعثُ ذلك التائب مع جماعةٍ من تلاميذه إلى البادية بلا زادٍ ولا راحلةٍ، حتى قالوا: أهلكت ناسًا كثيرة! قال: ليس كما زعمتم، فإنَّ التائبَ لا يقصدني، وإلاّ يكون عابدًا للصنم؛ بل يقصدُ اللهَ تعالى وأنا آمره بزيارة الكعبة على التجريد، فإن ماتَ في الطريق فقد وصلَ إلى المقصودِ بلا كلفةٍ، وإن رجع فقد ليَّنَهُ السفرُ، وحينئذ يصير أهلاً للصحبة، وقوّمَهُ بحيث لا أقدرُ عليه عشر سنين.

نقل أنّه قال: أَمرُّ بالسوق، وأرى على جبهة بعضِ الناس: هذا سعيد، وعلى جبهة بعضٍ: هذا شقي.

---

(١) في (ب): صغائر النفس.

نقل أنه نوبةً كان يدورُ في السوق ويقول: آهٍ من الإفلاس، آهٍ من الإفلاس. قالوا: ما الإفلاس؟ فقال: مجالسةُ الناس، ومُحادثتُهم، والمخالطة معهم.

نقل أنّه مرّةً مرَّ بجماعةٍ متنعِّمين مُشتغلين بتحصيل لذَّاتٍ فانية دنيوية، فشهق، وقال: هذه قلوبٌ واهيةٌ غافلةٌ عن الله تعالى، وعن ذكرِ الله[١]، فلا جرمَ أنَّ الله تعالى ابتلاهم بجيفةِ الدنيا ونجاستها.

ونقل أنّه رأى في بعضِ المقابر امرأةً تبكي وتقول: آهٍ من فراقِ الولد. فصاح الشبلي، وبكى، وضرب على رأسه، وقال: آه من فراقِ الأحد.

قال: التقيتُ بإبليس، فقال: يا شبلي، لا يغرُّك صفاءُ الأوقات، فإنّ تحته غوامضُ الآفات.

نقل أنّه رأى نارًا مَشعولةً في حطبٍ طريٍّ نديٍّ، والماءُ يتقاطرُ من الطرف الآخر كما هو المعروف، فنظر إلى الأصحاب، وقال: أيُّها المدّعون، فإنْ صدقتم أنَّ في قلبكم نارَ الخوف والمحبة، فأين تقاطرُ الدموع من عيونكم؟.

نقل أنه دخلَ في بيتِ الجنيد، وهو في غلبات الشوق والسكر، وامرأةُ الجُنيد مكشوفةَ الرأس، فأرادَتْ أن تسترَ رأسَها، فقال الجُنيد: لا تَستري رأسَك، فإن سكرانَ هذه الطائفة لا يلتفتُ إلى الجنَّة، ولا يحسُّ بالنار. ثم شرع يتكلَّمُ ويتحدّثُ مع الجنيد حتى غلبه البكاء، فالتفتَ الجُنيد إلى امرأته، وقال: غطّي رأسك الآن؛ فإنه صحا، لأجل هذا يبكي.

وقيل دخلَ على الجُنيد يومًا محزونًا، فقال الجُنيد: مالك يا شبلي، من طلب وجد؟ قال الشبلي: لا، بل من وجدَ طلبَ.

أقول: كلامُ الجُنيد إشارةٌ إلى مقام السالك المجذوب، وكلامُ الشبلي إلى مقامِ المجذوب السالك، ولا شكَّ في أنّه لو لم يكن من الله جذبُه أولاً كيف يطلبه أحد، بل كيف يغيّر فيُقدّم الجذبة؟ ـ أعني التقديرَ الأزليّ، والعنايةَ الأولية

(١) في (أ) غافلة من الله وعن رسوله.

بشيءٍ لا بدَّ منه ـ ثم بعد ذلك لا بدّ من الطلب، وبه تزدادُ الجذبةُ ساعةً فساعة، فكلّما يزدادُ الطلبُ تزداد الجذبة، وبالعكس، فعلى هذا لا تنفكُّ الجذبةُ عن السلوك، ولا السلوكُ عن الجذبة، هذا ما خطر بالبال أوانَ الكتابة، فجرى على لسان القلم. والله أعلم..

ونقل أن الجنيد رحمه الله رأى في المنام أنّه كان جالسًا مع الأصحاب، وفيهم الشبلي رحمه الله، فدخل عليهم النبيُّ ﷺ، وقبّلَ على جبهة الشبلي وخرج، فقال الجُنيد للشبلي: ماذا تعملُ حتى صرتَ أهلاً بهذه النعمة، وهذا التشريف؟ قال الشبلي: لا أعلمُ لي عملاً يوجبُ هذا سوى أني أقرأُ في سُنَّةِ صلاة الليل هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٨] قال الجُنيد: بهذا وجدتَ ما وجدت.

نقل أنَّ الشبلي رحمه الله توضَّأ يومًا، وعزم أن يدخلَ المسجد، فنُودي في سرِّه: أين لك طهارة لائقة حتى تهجَّمتَ علينا، وتريد الدخول في بيتنا؟! فلمّا اطّلع على هذا، رجع، فنُودي: أنّك رجعت عن بابنا، فأين توجّهت؟ فشرع في الصياح والشهيق، فنُودي: يا شبلي، تشتكي منّا؟ فوقف في مكانه، وصمتَ، نُودي: يا شبلي، تدّعي التحمُّلَ؟ فقال: إلهي، المستغاثُ بك منك.

ونقل أن الشبليَّ قصدَ الحجَّ نوبةً، فاحتاج إلى ألف درهم ليصرفَه في النقل لأصحابه، فجاء إليه نصرانيٌّ، فقال: عليَّ الألفُ، ولكن بشرطِ أن أُرافقكم في هذه النوبة. فمنعه الشيخ، فلم يمتنع، فأذنَ له الشيخ في المشي معهم طمعًا في إيمانه، فشدَّ النصرانيُّ وسطَه للخدمة، وذهب معهم، وكان يخدمهم غايةَ الخدمة إلى أن بلغوا ميقاتَ الإحرام، وأحرمَ الشيخُ والأصحاب، فأحرم النصرانيُّ كما أحرموا، فلمّا وصلوا إلى الحرم، قال الشبلي: توقَّفْ؛ إذ لا طريقَ لك في الحرم وأنت على حالك. فشرعَ النصرانيُّ في التضرُّعِ والبكاء قائلاً: إلهي، إنَّ الشبليَّ يمنعني عن زيارة بيتك، والدخولِ في حرم حرمك. فسمعوا هاتفًا يقول: يا شبليُّ، نحن طلبناهُ وجذبناه ودعوناه من بغداد، وأشعلنا نارَ المحبّةِ في فؤاده، وبسلسلة اللطف والإحسان اجتذبناه إلى حرمنا،

فلِمَ تزاحمُهُ؟ فابعدْ منه، ويا وليَّنا ادخلِ البيتَ. فلمَّا دخلَ البيت وتشرّف، ودخلتِ الناسُ وخرجوا، وهو بقي في البيت ولا يخرج، فقال له الشبلي: ولِمَ لا تخرج؟ قال: لا يأذنونَ لي في الخروج، ففي أيِّ جهةٍ أطلبُ الباب، فلا أجده.

أقول: ولا شكَّ في أن النصرانيَّ قد أسلمَ، ثم توجَّه إلى الله، ولم يكن لهم خبرٌ بإسلامه[١]، وهذا فضلُ الله يُؤتيه من يشاء. والله أعلم.

نقل أنَّ الشبليَّ سافر إلى البصرة في جماعةٍ من أصحابه، وضيَّفَهم طائفةٌ من البصرة وأعزُّوهم وأكرموهم، ثم شيَّعوهم يوم الخروج، وهو لم يلتفت إليهم، ولا اعتذرَ عن واحدٍ منهم على العادة، فقال له واحدٌ من الأصحاب: يا شيخ، لم لا تلتفتُ إليهم، ولهم على الأصحاب فضلٌ وحقُّ نعمةٍ؟ قال: هم إن عملوا ذلك لله فعليه أجرُهم وثوابهم، وإن عملوا لنا، ونحن عبيدُ الله ومماليك له، ومَنْ أحسنَ إلى مملوكِ شخصٍ، فذلك الإحسانُ معدودٌ على سيِّدِهِ، والله خبيرٌ بأعمالهم، وعلى أيِّ حالٍ فاللهُ يجزيهم ويثيبهم، واعتذاري لا ينفعُهم.

نقل أنه قال: عزمتُ أن لا أطعمَ إلاّ من الحلال، فخرجتُ إلى صحراء بعيدٍ من العمران، فوصلتُ إلى شجرةِ تينٍ في الخراب، فقصدتُ أن أتناولَ منه، فمددتُ يدي، فنطقَ التينُ وقال: احفظْ وقتك يا شبلي، فإنَّك على أن لا تأكلَ إلاّ من الحلال، والحالُ أنا ملكٌ ليهوديٍّ.

نقل أن رجلاً أعمى كان يحبُّ الشبلي لكثرةِ ما سمع من مناقبه وأوصافه، فيومًا جاءَ إليه الشبلي جائعًا، وعنده رغيفان، فما أطعمه رغيفًا، فمضى الشبليُّ، ثم أُخبر الأعمى: أنَّ الشِّبليَّ جاء إليك وما أطعمتَهُ كُسيرةَ رغيفٍ! فندم الرجل، وعمل دعوةً صرفَ عليها مئةَ دينار، ودعا الشبلي في جماعةٍ من الأكابر والأشراف، ففي المجلس سأل شخصٌ من الشبلي: ما علامةُ أهلِ الجنة وأهل النار؟ قال: علامةُ أهل النار أن لا يَصرفَ إلى فقيرٍ رغيفًا لله تعالى، ويصرفَ

---

(١) في (أ): لهم خبرة بإسلامه.

لهوى النفس مئة دينار كما عملَهُ صاحبُ الدعوة، وعلامُة أهل الجنة بعكس ذلك.

نقل أنه كان يعظُ الناس، فحصل لفقيرٍ ذوقٌ، فصاح، وعدا إلى دجلة، وألقى نفسه فيها، فقال الشبلي: إن كانَ صادقًا أنجاه الله تعالى كما أَنجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذبًا أغرقَهُ الله تعالى كما أغرقَ فرعون.

وكان يعظُ الناسَ نوبةً أُخرى إذ صاحتْ عجوزةٌ من خلف السترِ، فقالَ: موتي يا من تصيحُ وراءَ السِتر. فقالت: ها أنا جئتُ لأموت. وخطتْ خطوةً، وماتت، ولم يخرجْ إلى سَنَةٍ، وكان يقول: داست عجوزةٌ رقبتي.

نقل أنّه اتّفق أن عرضَ للجُنيد والشبلي معًا مرضٌ، فجاء طبيبٌ نصرانيٌّ إلى الجنيد رحمه الله، وسأله عن مرضه، وعن سبب مرضه، فالجُنيد ذكرَ له الحالَ من الأول إلى الآخر، وعالجه الطبيبُ، ثم ذهبَ إلى الشبلي، وكذلك سألَهُ عن حاله، فسكتَ، ولم يذكرْ له شيئًا، ثم رزقهم الله تعالى الصحةَ، والتقيا، فقال الشبلي: يا شيخ، ذكرتَ للطبيب حال مرضك! قال: ليعلم الطبيبُ أن الله تعالى يعملُ مع المسلمين كذا، فكيف حال النصارى؟ ثم قال الجُنيد: وأنتَ لِمَ لا تذكرُ حالَك له؟ قال: لأنّي استحييتُ من الحبيب أن أَشتكي منه إلى العدو الطبيب.

نقل أنَّ الشبلي مرَّ بدار الشفاء، فرأى شابًّا مليحَ المنظر، حسنَ الهيئة، مُقيَّدًا بالسلسلة، فقال: يا شيخ، إني أرى فيك سيما الصالحين، فأرجو منك أن تقولَ مع الله وقتَ السحر، حين يطيبُ وقتُك، ولا يكونَ حينئذٍ بين الله وبين العبدِ حجابٌ: أوجدتني من العدمِ، ثم بعّدتني من الأهل والأقارب، وقطعتني من الدنيا ولذَّاتها، وأَوقعتني في الغيرة، وعرّيتني وجوّعتني، وأذهبتَ عقلي، وألهبتَ نارَ المحبَّةِ في كبدي، ثم قيّدتني بالسلاسل، وفضحتني بين الخلائق، وما لي ذنبٌ غير محبّتك. ولمّا أرادَ الشبليُّ أن يطلعَ، صاحَ الشابُّ خلفه، وقال: يا شيخ، لا تقل شيئًا مما قلت؛ فإني أخاف أن يَبتليني بشيءٍ مما أنا فيه، فالسكوتُ خيرٌ على كلِّ حال.

نقل أن الشبليَّ رحمه الله كان يمرُّ بالسوق، فسمع فقاعيًا[(١)] يصيح: ما بقي إلاّ واحدٌ ـ أي كوز واحد للفقاع ـ فشرع الشبليُّ يصيحُ ويقولُ: هل بقي إلاّ واحد.

نقل أنَّ مُتكدِّيًا كان يقول: يكفيني رغيفان. وينادي على ذلك، فقال الشبليُّ: طُوبى لك إذ يكفيك رغيفان؛ فإنّي يُعرضُ عليَّ كلَّ مساءٍ جميعُ الكونين ـ أي الدنيا والآخرة ـ ولا أرضى به، ولا أَلتفتُ إليه.

نقل أنَّ الشبليَّ رأى رجلاً يبكي، فسأله عن سببِ بُكائه، فقال: كان لي حبيبٌ فمات، فأبكي عليه. فقال: يا جاهل، هلاَّ اتَّخذتَ حبيبًا لا يموتُ ولا يغيب.

نقل أنّه صلّى نوبةً على جنازةٍ، فكبَّرَ خمسَ تكبيرات، فقيل له في ذلك، قال: الأربع على الميت، والتكبيرةُ الخامسةُ على سائر الناس.

أقول: واعترضوا عليه لأنَّ التكبيراتِ المشروعة في صلاةِ الجنازة أربعٌ، وكأنّه بالخامسة أشار إلى أن النَّاسَ أمواتٌ؛ لاشتغالهم بما سوى الحقِّ جل جلاله. والله أعلم.

نقل أن الشبليَّ رحمه الله غابَ أيامًا، وما كانوا يجدونه، ثم بالآخر وجدوه بعد طلبٍ كثير في بيتِ مخنَّثٍ، قالوا: يا شيخ، لا نرى هذا البيتَ مكانًا لك، فلِمَ قمتَ فيه أيامًا؟ قال: دعوني، كما أنّه ليس برجلٍ ولا امرأةٍ في الدنيا، كذلك ما أنا برجلٍ ولا امرأة في الدين والجنسُ إلى الجنس ـ كما قيل ـ يميل.

أقول: وهذا يدلُّ على كاملِ تواضعه وإنكاره في نفسه، وعدمِ التفاته إلى أعماله؛ بل إن أعماله وإن كثرت كان في نظره كلا عملٍ، وهذا طريقةُ المُخلصين، وسبيلُ الخالصين، يؤيِّدُهُ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. والله أعلم.

---

(١) الفقّاع: شراب يتخذ من الشعير، والفقاعي بائعه. معجم متن اللغة.

نقل أنّه رأى صبيّيْنِ وجدا جوزةً، وكانا يختصمان فيها، فقال لهما: تعالوا إليَّ أقسمها بينكما. فأخذَها منهما، وكسرها، فإذا هي فارغةٌ، فسمع هاتفًا يقول: يا شبلي، لعلَّكَ أنت القسّام؟ فخجل من ذلك، وقال: الخصومةُ والقسمةُ في شيءٍ خالٍ حالُ أهل الدنيا، فإنّهم يتخاصمون على اللا شيء.

نقل أنه رحمه الله رأى جاريةً حسناء، فقال لسيِّدها: أتبيعُها بدرهمين؟ قال: وأنت مجنون؟ هل سمعتَ جاريةً تُباع بدرهمين! قال الشبلي: أنا مجنون أم أنت؟ أما تعلمُ أنَّ من الحورِ من تباع بتمرتين.

أقول: بتمرتين يتصدّقُ بهما شخصٌ عن فقرٍ مخلصًا لله تعالى، إذ ورد أنَّ درهمًا في الصدقة قد يكون مقدار ألف، لأن الأول يكونُ عن الفقر، والثاني عن الغنى[١].

قال الشاعر[٢]:

جَهْـدُ المُقـلِّ إذا أَعطـاكَ نـائلَـهُ ومكثرٍ في الغِنى سِيّانِ في الجوُدِ

والله أعلم.

نقل أنه قال: ليس في فِرَقِ أهلِ الملل والنحل طائفةٌ أخسُّ ولا أنزلُ وأذلُّ وأحقر من الروافض والخوارج؛ فإنَّ سائرَ الناس اختلفوا في الحقِّ جلَّ جلاله، وفي صفاته، في الجملة كلُّهم يُشيرون إلى الحقِّ، ويحدّثون عنه.

---

(١) قوله هذا إشارة إلى حديث المصطفى ﷺ الذي رواه الإمام أحمد ٢/ ٣٧٩، والنسائي ٥/ ٥٩، والحاكم ١/ ٤١٦، وابن حبان ٨/ ١٣٥. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق درهمٌ مئة ألف درهم» فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مئة ألف، فتصدّق بها، ورجل ليس له إلاّ درهمان، فأخذ أَحَدَهما فتصدّق به».

(٢) ذكرهُ المرزوقي شارح الحماسة من غير عزو ٤/ ١٧٦٧، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٨٠، والتذكرة الحمدونية ٢/ ٢٨١ نُسب إلى محمد بن يسير، وروايته فيهما: فضل المقل إذا أعطاك مصطبرًا.

أقول: يُوافقه قول الشاعر(١):

عبـاراتُنَـا شتّـى وحسنُـكَ واحـدٌ وكـلٌّ إلـى ذاكَ الجمـالِ يشيـرُ

والله أعلم.

وأمّا الروافض والخوارج فهم يضيّعون أعمارَهم، ويَصرفون أوقاتهم في الخلقِ، غافلين عن الحقِّ، ومع هذا فهم يَحسبون أنّهم يُحسنون صنعًا.

نقل أن الشبليَّ قال مع علويٍّ: من يُساوي منّا جدَّك عليًّا رضي الله عنه، فإنه تصدَّقَ بثلاثة أقراصٍ من الشعير، واللهُ تعالى أنزلَ في شأنه مع أهلِ بيته رضوان الله عليهم قولَه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . . .﴾ الآية [الإنسان: ٨] ومدحهم بذلك، وأثنى عليكم(٢)، وبقيتْ هذه الخصلة الحميدة لهم مشهورةً بين الناس، متلوّةً في كتاب الله تعالى إلى قيام الساعة، وواحدٌ منّا يتصدَّق بألوفٍ لا يَعلمُهُ ولا يذكرُه أحدٌ.

أقول: وكلامُ الشبلي صحيحٌ لا ريب فيه، ويؤيِّدُه قوله ﷺ في أصحابه رضوان الله عليهم: «لو أنفقَ أحدُكم مِلْءَ الأرض ذهبًا لما بلغَ مُدَّ أحدِهم، ولا نَصيفَهُ»(٣) فإنه ﷺ صرح بأنَّ تصدّقَ واحدٍ من أصحابه بمدٍّ أو نصفٍ خيرٌ وأكثر ثوابًا عند الله تعالى من تصدّقِ غيرهم ولو بملءِ الأرض ذهبًا، وعليٌّ رضي الله عنه كان من خيار الصحابة، فما ظنُّك بتصدّقه، وأيضًا قال ﷺ: «خيرُ القرون قرني، ثم الذي يلونهم. . .» الحديث(٤)، وهذا أيضًا دليلٌ على فضل الصحابة رضوان الله عليهم وعلى من بعدهم. والله أعلم.

---

(١) ذكره داود الانطاكي في كتاب تزيين الأسواق ٢/ ٣٧ من غير عزو.

(٢) في (أ): وأثنى عليهم.

(٣) حديث رواه البخاري (٣٦٧٣) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا، ومسلم (٢٥٤١) في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه، انظر الحاشية (١) صفحة (٥٤).

نقل أن الشبليَّ بينما كان في المسجد إذ قرأ شخصٌ قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] يعني إن أردنا نأخذ منك يا محمد ما أوحينا إليك، يعني وهو القرآن والرسالة. فحصلتْ له حالةٌ، وضرب جسدَه على الأرض حتى جرى منه الدم، وقال: إنَّ الله يُخاطبُ سيِّدَ الأنبياء عليهم السلام مع أنَّه حبيبه بهذا الخطاب، فكيف يكون حالُ غيره؟.

نقل أنّ الشبليَّ قال: مذ زمان أُريدُ أن أقول: حسبي الله، وما أطيق؛ لأنّي أَعلمُ أنّي كاذبٌ في هذا المقال.

أقول: لأنَّ معنى حسبي الله بلوغُ العبد إلى أقصى مقام التوكّل، وقطع النظر ظاهرًا وباطنًا عمّا سواه، والشبليُّ علمَ أنّه لم يصلْ بعدُ إلى هذا المقام، فلو قال حسبي الله مُدّعيًا لهذا المقام، كان كاذبًا لا محال، وإذا كان هذا حالَ الشبلي، فما تقول في غيره[١]؟ والله أعلم.

نقل أنَّ شخصًا أراد أن يمتحن الشبلي، فأهدى له بَذلة ثوب من الحرام، ولمّا دخلَ الشبليُّ بيته قال: وما هذه الظُّلمةُ التي أراها؟ وحين اطَّلعَ على الهدية، قال: الظُّلمةُ إنّما هي من هذه. وردَّها إلى المهدي، وقال: هذا لا يليقُ بنا.

نقل أنَّ الشبليَّ ولدتْ له بنتٌ، ولم يكنْ في بيته شيءٌ قطُّ، قيل: لم لا تطلبُ شيئًا من بعض الأصدقاء؟ قال: إنّ الطفلَ حين كان في ظلمات الرحم، أوصلَ اللهُ إليه راتبة الرزق، والآن أخرجَهُ إلى فضاءِ عالم الوجود، فيكف ينساه؟ ولكن علم أنَّ المرأةَ ضعيفةُ العقل، ركيكةُ الرأي، لعلّها لا يكون لها مثلُ صبره وتوكّله. فلمّا جنَّ عليه الليل تنحّى في موضع خالٍ، ووضع وجهَهُ على التراب، وقال: يا إلهي، أرسلتَ إلينا ضيفًا، فأنعِمْ علينا بشيءٍ نقوم بخدمته، بحيث لا يكونُ بواسطةِ أحدٍ من البخلاء. ما تمَّتْ مناجاتُهُ إذ نزلتْ عليه من السقف دنانيرُ كثيرةٌ من الذهب، وسمع هاتفًا يقول: خذْ بلا حساب،

(١) في (أ): فكيف يكون غيره.

وكلْ بلا عتاب. فأخذها بعد أن جمعَها، وفي الغد دخل السوق ليشتري حوائجَ البيت، فقال الناس: من أين هذه الدنانير الجديدة؟ قال: ضُربَتْ في دار ضربٍ لم تصلْ إليها يدُ بشرٍ، سبحان من يرزقُ عباده بلا حسابٍ ولا عتاب.

قيل له: يا شيخ، من كثرةِ اكتحالك بالملح لا تخافُ على عينك؟ قال: وما تَنفعني العينُ، فإن مقصودي مستورٌ من العين.

قيل له: ما أَعجبُ الأشياء؟ قال: أعجبُ الأشياء قلبٌ يعرفُ اللهَ ثم يُؤذيه.

قيل له: متى يتمُّ حالُ المريد؟ قال: إذا كان السفرُ والحضر، والغائبُ والشاهد مساويًا عنده.

قيل له: إنَّ أبا تراب النَّخْشبي جاعَ نوبةً في البادية، فأمطرَ اللهُ عليه الطعامَ بدلَ المطر. فقال الشِّبليُّ: كان هذا رفقًا من الله تعالى معه، ولم يكن واصلاً إلى مقام التحقيق، إذ لو كان في مقام التحقيق لكان يقول: «أظلُّ عند ربِّي يُطعمني»[(١)].

قال أبو العباس الدامغاني: وصّاني[(٢)] الشبلي رحمه الله بملازمةِ الانفراد عن الناس، ومحو اسمي عن ديوان القوم، وأن أتوجَّهَ إلى حائطٍ إلى أن أموت.

سأل الجُنيد عن الشبلي رحمهما الله: كيفَ تذكرُ الله تعالى، وليس لك صدقُ قدمٍ في ذكره؟ قال الشبليُّ رحمه الله: أذكرُ الله تعالى على المجاز، وإن لم أذكرْه على الحقيقة إلى أن يَذكرني اللهُ تعالى مرَّةً. فغُشي على الجُنيد من ذوق هذا الكلام، فقال الشبليُّ: دعوه، فإنَّ على هذا الباب تارةً خلعة، وتارةً ضربًا بالسوط.

---

(١) أخرج أحمد في المسند ٣/ ١٢٤، والبخاري (٧٢٤١) في التمني، باب ما يجوز من اللو، ومسلم (١١٠٤) في الصوم، باب النهي عن الوصال عن أنس أن النبي ﷺ واصل في رمضان، فواصل ناس من أصحابه، فقال: «لو مُدَّ لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمِّقون تعمّقَهم، إني أَظلّ يطعمني ربي ويسقيني».

(٢) في (ب): قال: وصاني الشبلي.

قيل للشبلي رحمه الله : الدنيا دارُ الاشتغال، والآخرةُ دار الأهوال، فمتى الراحة؟ قال: اجتنبوا عن أشغالِ الدنيا للنجاة عن أهوالِ الآخرة.

قيل له: أخبرنا عن التوحيدِ بعبارةٍ محرَّرةٍ. قال: ويحكم، مَنْ أخبرَ عن التوحيد بالعبارة فهو مُلحدٌ، ومن أشارَ إليه فهو ثنوي[١]، ومن سكتَ فجاهل، ومن ظنَّ أنّه واصلٌ فليس له حاصل، ومن قال: إنّه قريبٌ، فهو بعيد.

أقول: أمّا قولُه: (من أخبر عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد) أي: مائلٌ إلى الباطل، فمعناه: أنّه لا بدَّ من الاعتقاد الصحيح أولاً، ثم التحقيق ثانيًا، ثم الشهود ثالثًا. فالأولُ يُعبّرُ عنه بعلم اليقين، والثاني بعين اليقين، والثالث بحقِّ اليقين، فمن لم ينظرْ إلى هذه الأحوال، واكتفى عن المذكورات بالعبارة، فهو ملحدٌ لا محالة.

وأما قوله: (ومن أشار إليه ـ أي إلى الله تعالى ـ بالإشارة) الحسّية أنه هناك أو هنا فهو مشركٌ ثنوي، لأنَّ كونَه مُشارًا إليه يستلزمُ أنّه جسمٌ[٢]، وفي مكانٍ وزمان، وهذا وأمثالُهُ من صفات المُحدثات، وسماتِ المُمكنات، واللهُ تعالى مُقدّسٌ عن ذلك، مُنزَّه عنه.

وأما قوله: (ومن سكت فجاهل) فمعناه: أنَّ من عرف الله تعالى، وخرج بتوفيقه تعالى من ظُلمات الغواية إلى نور الهداية كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فيجب عليه أن يُقرَّ بالتوحيد، ويُعربَ عنه لتجري عليه أحكام الشرع، وإلاّ فجاهلٌ ظاهر، وإن كان عارفًا باطنًا، ولكن من عرفَ الله تعالى، وآمنَ به، ولم ينطق بما اعتقد فإمّا لخرسٍ، أو لخوفٍ على النفس، أو لأنه لم يبق إلاّ أن ينطق فهو مؤمنٌ عند الله، غيرُ مؤمن عندنا.

وأما قوله: (من ظن أنه واصل فليس له حاصل) فمعناه: أنّ الوصول إلى الله

---

(١) كتب أمامها في (أ): في نسخة وثني.

(٢) في (أ): لأن قوله (مشار إليه) يستلزم جسمًا له.

تعالى بحسب الظاهر مُستحيلٌ قطعًا، وأمّا المعرفةُ فغايتُها العجزُ عن المعرفة، كما قال ﷺ: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»(١).

وروي عن داود عليه السلام: سبحان من لم يجعلْ لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته. ويُروى هذا عن جعفر الصادق أيضًا.

فعلى هذا من ادّعى أنّه وصلَ إليه بالمعرفة، أو وصل إلى كُنْهِ المعرفة، فدعواه كذبٌ وباطل، ومن يكون كذلك فلا حاصلَ له في معرفته، ولا طائلَ لمرتبته، يؤيِّدُهُ ما رُوي عنه ﷺ: «من قال: إنّي من خيرِ الناس فهو من شرِّ الناس، ومن قال إنّي في الجنة فهو في النار»(٢). والله أعلم.

نقل أنَّ الشبليَّ رحمه الله سُئل عن التصوف، فقال: فناء الناسوتية ـ أي البشرية ـ وظهور اللاهوتية ـ أي الإلهية.

وقال: التصوفُ ضبطُ الحواس، ومُراعاةُ الأنفاس.

وقال: لا يصيرُ الإنسانُ صوفيًا حتى يَرى جميعَ الخلائق عيالاً له ـ أي في النصيحة لهم، وتربيتهم.

وقال: الصوفي من انقطعَ عن الخلق، ويكونُ للهِ وحده، كما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

وقال: التصوفُ هو العصمةُ عن رؤية الكون ـ يعني لا يرى الوجود إلاّ لله الواحدِ القهار.

---

(١) حديث ذكره ابن عرب شاه في فاكهه الخلفاء ١٢٢، قال المناوي في فيض القدير ٢/ ٤١٠ تحت قوله: «إن أتقاكم وأعلمكم...». وفي الخبر: سبحانك ما عرفناك. والحديث يذكر بقول الملائكة لله عزّ وجل: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» الذي رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ٤٤، والمعجم الكبير ٢/ ١٨٤. وقد تقدم الحديث صفحة ١٨١.

(٢) قوله ﷺ: «ومن قال إني في الجنة فهو في النار» رواه الطبراني في المعجم الصغير ١/ ١٢٠ (١٧٦) عن يحيى بن أبي كثير. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٦: وفيه محمد بن أبي العطاء الثقفي، ضعفه أحمد، وقال: هو منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، ومع ذلك فهو من قول يحيى موقوفًا عليه. وأما قوله ﷺ: «من قال: إني من خير الناس، فهو من شرّ الناس» فلم أجده في المصادر التي بين يدي. وانظر الحاشية (٤) صفحة ١٧٤.

وقال: التصوف برقٌ مُحرق.

أقول: يعني هو برقٌ محرق(١) عن هواء الهوية على قلب الصوفي، فيحرق نفسَه وأنانيته وأنِّيَّته مع جميع أوصافه. والله أعلم.

وقال رحمه الله: إن الله تعالى أوحى لداودَ عليه السلام: يا داود، الذكر للذاكرين، والجنة للمُطيعين، والزيارة للمسافرين، وأنا للمحبّين.

وقال: المحبّةُ دهشةٌ في لذّةٍ، وحيرةٌ في نعمة.

وقال: المحبَّةُ تركُ ما تحبُّ لمن تُحبُّ.

وقال: من ادّعى المحبَّة، ثم اشتغلَ بغيرِ المحبوب، أو طلبَ غيرَه، فالحقُّ أنه مُستهزىءٌ بالمحبوب.

وقال: الهيبةُ تذيب القلوب، والمحبَّةُ تُذيب الأرواح.

وقال: التوحيد حجابُ الموحّد عن جمال الحضرة الأحدية.

وقال لرجلٍ: هل تعرفُ لِمَ لا تصلُ إلى مقام التوحيد؟ قال: لا. قال: لأنَّك تَدّعي الاشتغال في الطلب.

وقال: إذا أرادَ اللهُ تعالى تعذيبَ البلاء أنزلَهُ في قلبِ العارف.

أقول: ونعمَ ما قيل فيما يُناسب هذا المعنى:

وليس الفتى مَنْ ضَاقَ بالصبرِ صدرُهُ ... ولكنَّه من ضاق عن صَدْرِهِ الصبرُ

والله أعلم.

سئل الشبلي عن العارف، قال: العارف من لم يقم على معارضته من مخلوقات الله عزَّ وجل(٢).

سُئل الشبليُّ رحمه الله مرة أخرى(٣) عن العارف، فقال: هو من

(١) في (ب): هو برق يلمع من.

(٢) هذا القول ليس في (ب).

(٣) قوله: (مرة أخرى) ليس في (ب).

يحملُ الأرضَ والسماء بهدبةٍ من أهدابه.

قالوا: يا شيخُ، قلتَ مرَّة كذا، والآن تقولُ هذا! قال: ذلك الكلامُ صَدَرَ منّا ونحن نحن، وهذا الكلامُ قلتُ وما أنا أنا.

أقول: معناه إذا كان العارفُ في عالمِ الكثرة ناظرًا إلى وجوده، لا شكَّ أنَّه باستقلاله وانفرادِهِ لا يقوى على معارضةِ أصَغرِ مخلوقاتِ الله تعالى[١]، ولا على دفعِهِ عن نفسه، وأمّا عند تلاطم[٢] بحرِ التوحيد واستغراقه فيه، فيحصل له قوةُ حمل السموات والأرضين بشعرةٍ من شعور أجفانه بقدرة الله تعالى وقوّته. والله أعلم.

وقال: لا علامة للعارف، ولا كلامَ للمُحبّ، ولا قرارَ للخائف.

سئل عن المعرفة، قال: أوّلُها إلى الله تعالى، وآخرُها لا نهاية له.

وقال: لا يعرفُ الله تعالى أحدٌ. قيل: كيف؟ قال: لو عرفوه لما اشتغلوا بغيره.

قال: العارفُ من يكونُ حرًّا عن الدنيا، مُجرّدًا عن الآخرة؛ لأنَّ من تجرَّدَ عن الأكوان انفردَ إلى الحقِّ.

وقال: [العارف][٣] من لا يرى، ولا يَنطقُ إلاّ بالله، ولا يرى لنفسه حافظًا غيرَ الله تعالى.

وقال: العارفُ كالربيع، ففيه صوتُ الرعد، ولمعانُ البرق، وهبوبُ الرياح، وصياحُ الأطيار، وظهورُ الأزهار، ونزولُ الأمطار، فكذلك حالُ العارف: بالعين يبكي، وبالشفتين يضحك، وبالقلبِ يحترقُ، وعلى سرِّه يمطرُ، ويذكرُ اسمَ الحبيب[٤]، وعلى بابه يدور.

---

(١) في (أ): معارضة بقّةٍ، أصغرِ مخلوق الله.
(٢) في (ب): ولا ما عند تلاطم.
(٣) ما بين معقوفين لاستكمال المعنى.
(٤) في (أ): وعلى سيده يمطر اسم الحبيب.

وقال: الدعوة ثلاث: دعوةُ العلم، ودعوةُ المعرفة، ودعوةُ المعاينة.

وقال: العبادةُ لسان العلم، والحيرةُ ترجمانُ المعرفة.

وقال: علمُ اليقين ما وصلَ إلينا على لسان النبيِّ ﷺ، وعينُ اليقين ما ألهمَ اللهُ تعالى على قلوبنا بنورِ الهداية بلا واسطةٍ، وحقُّ اليقين لا طريقَ إليه[١].

وقال: صاحبُ الهمَّةِ لا يشتغلُ بشيءٍ، وصاحبُ الإرادة قد يشتغلُ.

و: الفقيرُ من لا يَستغني بشيءٍ دون الله.

سئل عن الفقر، قال: للفقراء أربع مئة درجة، أدناها أن الفقير إن كانتِ الدنيا بحذافيرها ـ أي بجميعها ـ له، وأنفقها في سبيل الله، ثم يخطرُ بباله: أنَّه لِمَ لم يتركْ له قوتَ يومٍ؟ لا يكونُ فقرُه حقيقيًّا.

وقال: الشريعةُ أن تعبده، والطريقةُ أن تطلبه، والحقيقةُ أن تراه.

وقال: أفضلُ الذكر نسيانُ الذاكر في مُشاهدةِ المذكور.

وقال: الصابرُ كمن على الباب، والراضي كمن في البيت، والمُفوّضُ كمن هو من أهل البيت.

سئل عن الزهد، قال: هو نسيانُ الدنيا، وعدمُ تذكّر الآخرة.

وسئل عن الاستقامة، قال: في الدنيا رؤية القيامة.

وقال: الأُنس أن يكونَ لك وحشةٌ من نفسك.

وقال: الأُنس بالذكر كالأُنسِ بالمذكور.

وقال: العبوديةُ أن يظهرَ العبدُ[٢] في عين العبد، وإذا ظهرتْ صفاتُ الحقِّ فهو المشاهدة.

وقال: مع كلِّ نعمةٍ ثلاثةُ أنواعٍ من المكر، وتحت كلِّ عبادةٍ ستَّةُ أنواعٍ من المكر.

---

(١) انظر صفحة ٨٢٢.

(٢) كذا في الأصل، ولعلّها: يظهر المعبود.

وقال: العبادةُ رفعُ الإرادة، وفسخُ الاختيار، وتركُ الأماني لإرادة الله تعالى واختيارِه ورضاه.

وقال: الاستئناسُ بالناس من الإفلاسِ، وحركةُ اللِّسانِ بلا ذكرِ الله وسواس.

وقال: علامةُ القربِ الانقطاعُ عن كلِّ شيءٍ غير الله.

وقال: الفتوة أن تحبَّ للناسِ كلِّهم ما تحبُّ لنفسك؛ بل خيرًا من ذلك.

وقال: الحريةُ حريةُ القلب.

وقال: الخوفُ في الوصل أشدُّ من الخوفِ في المكر.

وقال: لا يكونُ من يومٍ يغلبُ الخوفُ عليَّ فيه إلاّ ويُفتحُ على قلبي بابٌ من الحكمة.

وقال: الشكرُ في النعمة أن ترى في النعمة وجودَ المُنعم.

نَفَسٌ يَتنفَّسُ به العبدُ في مُوافقةِ مولاه أَفضلُ من عبادة جميعِ الخلق.

وقال: من نامَ بالغفلةِ في ساعةٍ من ليلةٍ تأخَّرَ عن الآخرة مسافةَ ألف سنة.

وقال: سهوُ العارفِ من الله طرفةَ عينٍ مَعدودٌ من الشرك.

وقال: من هو محجوبٌ بالخلقِ عن الحقِّ ليس كمن هو محجوبٌ بالحقِّ عن الخلق، وليس مَنِ اختطفَتْهُ أنوارُ القدس كمن اختطفته أنوارُ الرحمةِ والمغفرة.

وقال: من تلفَ في الحقِّ، فالحقُّ له.

وقال: ظهرتِ اليومَ طائفةٌ يحضرون المجلسَ على العادة، ويسمعون بالرسم، ولا يزيدُ لهم الجلوسُ والسماعُ شيئًا سوى البلادة.

قال الحسن الدامغاني: وصّاني الشبليُّ رحمه الله، وقال: عليك بالله، فكن مع الله(١)، واتركْ غيره ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

---

(١) في (ب): فكن من الله.

قيل له: متى تكونُ أَروحَ؟ قال: إذا لم يكنْ لله ذاكرٌ غيري، بل أذكرُ الله وحدي.

وقال: لو جعل الله تعالى الدنيا كلَّها لقمةً، وألقمَها طفلاً رضيعًا، فإنّي أترحَّمُ عليه بعد ذلك، فإنه يبقى جائعًا، وهي له قليل.

أقول: هذا إشارةٌ إلى أن فضلَ الله ورحمتَه أكثرُ ممّا يُحصى ويُستقصى، فالدنيا بالنسبةِ إلى طفل قليل. والله أعلم.

وقال: لو كانتِ الدنيا لي، وأنا سلّمتها إلى يهوديٍّ، فله عليَّ ألفُ منَّةٍ، لأنه قبلَ الدنيا منّي.

وقال: ليس للكونِ مقدارٌ أن يخطرَ ببالي، كيف ومع المكوّنِ لا ألتفتُ إلى الكون!.

نقل أنه قال في مرضِ موته، وهو في غاية الاضطراب: تهبُّ ريحان: ريحٌ من خزانة اللُّطف، وأُخرى من مهبِّ القهر، فمن هبَّتْ عليه ريحُ اللطف، وصلَ إلى المقصود، ومن هبَّتْ عليه ريحُ القهرِ بقي في الحجاب، فإن هبَّتْ عليَّ ريحُ اللطف فما بي من التعب، والسكرات في جنبها هيِّنٌ.

ثم قال: لا شيءَ أَصعبُ عليَّ من أنه كان عليَّ درهمُ مظلمةٍ، فصرفتُ لأجلِهِ ألفَ درهمٍ، ولا يَطمئنُّ قلبي.

ثم أمرَهم أن يغسلوا أعضاء وضوئه على نيّةِ الوضوء، ونسوا تخليلَ محاسنه، فذكّرهم ذلك.

قال أبو المجد الهروي رحمه الله: لا زالَ الشبليُّ رحمه الله ينشدُ هذين البيتين في الليلةِ التي تُوفّي فيها:

إنَّ بيتًا أنتَ ساكنُهُ ... غيرُ مُحتاجٍ إلى السُّرُجِ
وجهُكَ المأمولُ حُجَّتُنا ... يومَ يأتي النَّاسُ بالحُجَجِ[(١)]

(١) البيتان في الرسالة القشيرية ٤٢٩ (أحوالهم عند الخروج من الدنيا)، تاريخ بغداد ١٦/ ٥٧١، مناقب الأبرار ٦٥١، وهما ينسبان إلى ديك الجن، انظر ديوانه صفحة ٢٠٧.

لقّنوه كلمةَ الشهادة، فقال: إنَّ سُلطانَ المحبَّة يقول: لا أقبلُ الرشوة[١].

ثم بعد ساعةٍ سُئل عن حاله، فقال: وصلتُ إلى المحبوبِ. وسلّم روحَه.

ثم بعد موته رآه بعضُ الصَّالحين في المنام، وقال له: ما فعلْتَ مع مُنكرٍ ونكير؟ قال: دخلا عليَّ، وقالا: مَنْ ربُّك؟ قلت: ربّي هو الذي أمرَكُما وأمرَ جميعَ الملائكة ليسجدوا لآدم، وأنا في ظهرِهِ أَنظرُ إليكم. قال أحدُهما للآخر: ما أجابَ عن نفسه فقط؛ بل عن جميعِ أولاد آدم. ورجعا.

ورآه آخرُ في المنام، وقال: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: إنَّ الله لم يُطالبني بشيءٍ إلاّ بما قلتُه في الدنيا: إنه لا حسرةَ أعظمُ من أن يُحرمَ من الجنة، ويدخل النار، فقال الله تعالى: يا شبليُّ، ليس كما قلتَ، بل لا حسرةَ أَعظمُ من الحرمان عن لقائي، والمحجوبية عنّي.

قيل: رآه آخرُ في المنام، وقال: كيف وجدتَ سوق[٢] الآخرة؟ قال: سوقُ الآخرة[٢] سوقٌ لا قيمة فيه لشيءٍ[٣] إلاّ لكبدٍ مُحترقٍ، وقلبٍ مُنكسر، وما سواهما لا شيءَ محضٌ؛ فإنَّ هنا يُجبرون المُنكسر، ويُعالجون المحترق، ولا يلتفتون إلى غيرِهما.

رحمه اللهُ بلطفه وكرمه، ورزقنا قلبًا مُحترقًا بنار محبَّته، مُنوّرًا بنور معرفته، وحشرنا مع آبائنا وأمهاتنا وسائرِ أحبَّتنا في زمرة الأبرار الذين أنعمَ اللهُ عليهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وصلى الله على سيّدنا وشفيعنا خيرِ المرسلين، وقائدِ الغرِّ المحجَّلين محمّدٍ وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه أَجمعين.

* * *

---

(١) جاء في مناقب الأبرار ٦٥١: قيل له عند وفاته: قل لا إله إلا الله. فقال:

قال سلطانُ حبِّه ... أنا لا أقبل الرِّشا

فسلوه فديته ... لِمْ بقتلي تحرَّشا

(٢) في (أ): شوق الآخرة.

(٣) في (ب): لا قيمة لكم فيه بشيء.